المقياس: فلسفة العلوم

المحاضرة التاسعة: النزعة التكذيبية في فلسفة كارل ريموند بوبر

مدخل: ثمة وثبات في تاريخ الفلسفة بعثت في العقل يقظة علمية فلسفية مدهشة، لم يسبق للفكر أن بلغها، ليعظم شأنها بين علماء وفلاسفة العلم في القرن العشرين. وقد تحققت بفضل ثورة إبستيمولوجية متجددة وقّع على تألقها وعظمتها فيلسوف العلم المعاصر 'كارل ريموند بوبر'. هذا ويمكن بحق عد الفلسفة البوبرية *La philosophie poppérienne* في الفلسفة العلمية المعاصرة بمثابة حلقة وصل وانفتاح ثوري تطوري، مد صار للمعرفة تأصيل أصيل بمنآى عن التداعيات الفكرية السلطوية والمذهبية للفكر العلمي، ما قبل وكذا إبان مطلع الأبحاث الإبستيمولوجية معاصرا.

أولا: النزعة النقدية في فلسفة بوبر:

1. **بوبر منتقدا حلقة فيينا:** إن الحديث عن بوبر وفلسفته في قراءات المؤرخين والباحثين، يتضمن تجميعا وتنويعا في مرجعيات المشروع الثوري الميثودولوجي الذي يرتد إلى تحويرات جذرية في مقررات المدارس المعاصرة، وحلقات الجدل والنقاش، التي جمعت بوبر بنوابغ الفلسفة العلمية وعلماء القرن العشرين، ونخص بذكرنا هنا 'حلقة فيينا(*)'، " فقد أعلنت الجماعة عن أهدافها ومنهجها، لقد تمثل الهدف الرئيسي لدائرة فيينا في توحيد العلوم الجزئية، وتوحيد معارف الإنسان... أدق أهداف دائرة فيينا استبعاد القضايا الميثافيزيقية من العلوم الطبيعية والرياضيات والمعرفة الإنسانية بوجه عام بصورة

(*) . ترجع جذور جماعة فيينا إلى مجموعة من طلاب البحث المتحمسين، الذين اعتادوا في العام 1907 على الالتقاء في مقهى قديم في فيينا كل ليلة خميس لمناقشة مشكلات العلم والفلسفة. ثلاثة من هؤلاء الطلاب كانوا يعملون في مجالات مختلفة، هم 'فيليب فرانك' *Philipp Frank*، الذي كان يعمل في الفيزياء، و'هانز هان' *Hans Hahn*، الذي كان يعمل في الرياضيات، و'أوتونيورات' *Otto Neurath*، الذي كان يعمل في الاقتصاد، لكنهم جميعا وجدوا في الاهتمام بفلسفة العلم نقطة التقاء جمعت بينهم. وبعد مرور سنوات عدة، وتحديدا عام 1921، أصبح هانز أستاذا لكرسي الرياضيات بجامعة فيينا، وعندما أصبحت أستاذية 'ماخ. بولتزمان' *Mach – Boltzman*، للعلوم الاستقرائية شاغرة في العام التالي، مارس 'هانز' تأثيره لكي يعين بها 'مورتسشليك' *Moritz Schlick*، وبعد وصول 'شليك' إلى فيينا عام 1922، علامة يستدل بها على البداية الحقيقية لجماعة فيينا. فشليك في واقع الأمر أعد حلقة النقاش *seminer*، لمجموعة صغيرة مدعوة، عرفت فيما بعد بجماعة فيينا، في بادئ الأمر كان المشاركون الأساسيون هما 'هان' و 'نيوراث' و 'فيليب فرانك' الذي كان يعمل أستاذا للفيزياء في براج، وكان يقوم بزيارات متكررة للمجموعة. توسعت المجموعة بعد ذلك لتضم 'فيكتور كرافت' *Viktor Kraft*، و'هربرت فايجل' *Herbert Feigl*، و 'فريدريك وايزمان' *Friedrich Waisman*، و 'كورت جودل' *Kurt*Godel، بالإضافة إلى الآخرين. واستطاع 'شليك' أن يحصل لكارناب على وظيفة مدرس في جامعة فيينا، والذي انضم للجماعة في عام 1926، وسرعان ما أصبح واحدا من الرموز القيادية بها. وفي عام 1929، نشرت الجماعة بيانها الرسمي (التصور العلمي للعالم: جماعة فيينا) الذي كتبه 'نيوراث'. ثم بدأت الجماعة في إصدار جريدتها الخاصة بها عام 1930 والتي سميت بـ 'المعرفة' *Erkenntnis* وكان يحررها كل من 'كارناب' و 'ريشنباخ' *Riechenbach*'. دونالد جيليز: **فلسفة العلم في القرن العشرين**، تر إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2009، ص ص 129. 131.

إيجابية لتوضيح تصورات ومناهج العلوم وبيان كيف أن المعرفة الإنسانية ككل صدرت عن معطيات الخبرة"[1]. وقد تباينت القراءات بشأن علاقة بوبر بجماعة فيينا، وسنورد قولا لـ 'دونالد جيليز' يقر فيه بصلة 'بوبر' بالجماعة: "سوف نتناول الآن فيلسوفا على درجة كبيرة من الأهمية كانت له صلة وثيقة بجماعة فيينا، رغم أنه لم يكن عضوا بها وهو 'كارل بوبر*Karl Popper*[*] *الذي* ولد عام 1902... لم يدع بوبر قط لحضور حلقة نقاشية من تلك الحلقات التي كانت تنظمها جماعة فيينا، وكان 'نيوراث' قد وصفه بطريقة ظريفة . لا تخلو من الدقة، بأنه 'المعارض الرسمي' لجماعة فيينا. نشر كتاب بوبر 'منطق الكشف العلمي' *The logic of scientific discovery ' (1934)* أول مرة في دورية جماعة فيينا التي كان يحررها 'شليك'"[2].هذا ويعتبر كتاب بوبر 'منطق الكشف العلمي' أبرز الكتب التي لخص فيها' كارل بوبر' مشاريعه العلمية " ويتطرق هذا الكتاب إلى موضوعات تخص جماعة فيينا في المقام الأول، مثل الاستقراء، ومشكلة التمييز، والاحتمال، والتأييد، والمشكلات المفاهيمية لميكانيكا الكوانتم... وهكذا شارك بوبر جماعة فيينا

([1]) - كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، تر، ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 15.

([*]) . فيلسوف إبستيمولوجي من أصل نمساوي، أبدى اعتراضا على المبادئ الكبرى لنظرية المعرفة في أزمنتها الكلاسيكية، كما عرض مقترحا جديدا دعا من خلاله إلى تبني منهج علمي ونظرية للمعرفة. له حضور جد فعال في حلقة فيينا، أثار تساؤلات حول المبادئ الأساسية المنظمة للمعرفة، مثل: معيار التحقق، مبدأ الاستقراء، مفهوم اليقين وأدلته العلمية. ويقدم بوبر مقترحا جديدا عرض من خلاله إلى المبادئ الجديدة تماما التي استوعبتها الابستيمولوجيا المعاصرة، مثل: التكذيب وقابلية التكذيب (ويعتبرها بوبر مبادئ حاسمة برغم طابعها السلبي من الناحية العلمية). ويفترض بوبر الطابع التخميني للمعرفة العلمية، في إجراءاتها الموضوعية، لما لها من أهمية أنطولوجية، وباعتبار نزوعها المستمر إلى تقريب العلم من الحقيقة الموضوعية. ولد بوبر في فيينا، درس الرياضيات والفيزياء والفلسفة، حصل على الدكتوراه سنة 1928، اضطر إلى مغادرة النمسا خوفا من الحركة النازية، فارا إلى نيوزيلندا. انكب على دراسة الفلسفة ومكث بها حتى سنة 1945، وكان لإسهام مواطنه الصديق Hayek حصل على شهادة الأستاذية في المنطق ومناهج العلوم في كلية الاقتصاد بلندن. درّس بعديد الجامعات الأميركية... شارك في عديد الملتقيات تاركا بصمات بحضوره وجدالاته الحاسمة. مؤلفاته:

. بؤس التاريخانية (1945. 1946)
. المجتمع المفتوح وأعداؤه (1945)
. منطق الكشف العلمي (1959)
. تخمينات وتفنيدات (1963)
. المعرفة الموضوعية (1972)
. المسعى الدائم (1976)
. المستقبل المفتوح (1982)
. الواقعية والعلم (1990)". *Noëlla baraquin: **Dictionnaire des Philosophes**, Deuxième Edition, Armand colin, Paris, PP 303-304.*

. 'حتى في العالم الناطق بالفرنسية، كارل بوبر لم يعد غير معروف، له مقالات عديدة مثيرة للجدل مثل: "بؤس التاريخانية" التي نشرت باللغة الإنجليزية بين عامي 1944- 1945، كانت جاهزة باللغة الفرنسية منذ عام 1956، وكذا مقاله الريادي: "منطق الكشف العلمي الذي نشر باللغة الألمانية عام 1934، وفوق ذلك كله بدت أفكاره الرئيسية في فلسفة العلوم وفلسفته الاجتماعية أكثر انتشارا في العالمين الناطقين باللغة الإنجليزية أو الناطقة بالألمانية، حيث أمكن لها اختراق خطوط النقاش الأكثر تنوعا، ووضع سمة بارزة لشكلها الأكثر عمقا. والواقع أنه على الرغم من أن الفلسفات العظيمة لهذا القرن هي بلا شك أعمق وأكثر أصالة، إلا أننا لا نعثر على فكر بلغ مقاما من حدة النقاش على نطاق واسع مثل فلسفة بوبر في عديد التخصصات".

*Philippe van parijs : Karl Popper : le cercle de vienne et l'école de francfor**t**, revue philosophique de Louvain, Paris, 1978, P 359.*

([2]) - دونالد جيليز: فلسفة العلم في القرن العشرين، ص ص 139. 140.

اهتماما ينصب على المجموعة نفسها من المشكلات. بيد أن الفارق الذي جعله مختلفا عن جماعة فيينا هو الإجابات التي كان يقدمها لحل تلك المشكلات. فضلا عن أن بوبر كان ينتقد آراء جماعة فيينا حول معظم القضايا الفلسفية الأساسية، وطوّر نظريات فلسفية تختلف جذريا عن النظريات التي توصلت إليها الجماعة"[1].وإذ ذاك فإن بوبر لم يبد رغبته في الانضمام إلى حلقة فيينا مؤيدا لأفكارها وأطروحاتها، ولربما ستكون هذه القطيعات إحدى أبرز المؤشرات الدالة على خلاف واختلاف العقلية البوبرية عن توجهات أعضاء الحلقة، بحكم تميز بوبر بفلسفته النقدية الجريئة التي اصطدمت مع عديد الأفكار موضع جدال بين أقطابها، " وربما كان الهجوم الذي وجهه كارل ريموند بوبر إلى الوضعية المنطقية في مؤلفه 'منطق الكشف العلمي' 1934، من أهم أسباب تفكك الجماعة فكريا... وقد أشار أحد أقطاب الوضعية المنطقية 'فكتور كرافت' إلى جوانب صلة بوبر بالوضعية المنطقية برغم اعتراضاته على مقرراتها: أن بوبر لم يكن ينتمي أبدا إلى حلقة فيينا، ولم يشارك في اجتماعاتها، ومع هذا فلا يمكن النظر إليه على أنه من خارج حلقة فيينا"[2].

ولكن تصورنا الإشكالي لمضمون المعادلة الجدلية (الانتساب واللا انتساب للحلقة) يضعنا أمام قضية طارئة تثير لدينا جدلا بين رسالة بوبر العلمية الجديدة وبين مقررات فلسفة العلم لدى جماعة فيينا، خاصة إذا علمنا أن بوبر قد تفرد دون غيره من الفلاسفة بنزعته النقدية الجريئة، في أيما مسألة، وقد ذكر 'ماهر عبد القادر' في معرض ترجمته لكتاب بوبر 'منطق الكشف العلمي' *Logical of scientific discovery* قائلا: " إن أعمال كارل بوبر ذاتها لا يمكن أن تفهم بدون الإشارة أو الرجوع لحلقة فيينا... إن كارل بوبر درس جيدا كتاب كارناب*CarnapRodolf* المعنون (الإعراب المنطقي واللغة) *Logical(expression and language)* وعلّق على هذا الكتاب بقوله: 'من وجهة النظر الفلسفية اعتبر هذا المؤلف بداية لثورة حقيقية... إن كارل بوبر في مؤلفه 'تخمينات وتفنيدات' *Conjectures and refutations* يثبت العلاقة بينه وبين حلقة فيينا بذكرها عدة مرات في مواضع متعددة"[3].ولا شك أن بوبر حائز على ثقافة تجاوزت ثقافة معاصريه طالما أنه تميز بغزارة فكره النقدي وسعة ثقافته، بل وجرأته في الرد على أيما فلسفة استوعبها ليقوض نقائصها، حتى أننا نقرأ شهادات لبعض أفكار وأطروحات العلماء والفلاسفة ممن أبانوا على الدور المتميز للأبحاث السيكولوجية من جهة دلالتها على صلتها بالأبحاث العلمية التي عرضت لها حلقة فيينا بالنقاش والجدل، التي غاب عنها وريد الود والوفاق الفكري والمذهبي بين أعضائها، واحتلت نظرية فرويد في التحليل النفسي مقاما جديرا بالاهتمام بين أعضائها، بالنظر إلى دور مثل هذه النظريات في تعزيز الأطر المرجعية لفلسفة العلم في القرن العشرين. وقد كان فرويد أحد أعضاء حلقة فيينا البارزين ولكن ما لبث أن تبرم عن أفكارها وسجالاتها، إذ يقول: "واقعتان اثنتان فقط ما كانتا تبشران بخير في نهاية المطاف على الابتعاد معنويا عن هذه الحلقة فأنا لم أفلح في أن أنشر بين أعضائها ذلك

([1]) - المرجع نفسه، ص 140.

([2]) - كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، ص 17.

([3]) - كارل بوبر: منطق الكشف العلمي ، ص 17.

الوفاق الودي، الذي ينبغي أن يقوم بين أناس ينذرون أنفسهم لعمل واحد قاس وشاق كما لم أفلح في استبعاد مناقشات الأسبقية، تلك المناقشات التي تقدم لها شروط العمل المشترك العديد من الذرائع"[1].لذا كانت بداية بوبر الجدية في تشكيل فلسفة علمية جريئة من خلال " قراءاته لفلسفة التاريخ عند ماركس، والتحليل النفسي عند فرويد، وعلم نفس الفرد عند ألفرد أدلر*Alfred adler* فقد ساورته الشكوك حول هذه النظريات، ووجد نفسه في مواجهة التساؤل التالي: كيف يمكن للمرء أن يقرر ما إذا كانت النظريات العلمية صحيحة؟ وكيف تحصل القضايا العلمية على صحتها؟ وكيف نميز بين التصورات العلمية وغير العلمية؟"[2]. وقد كانت أولى محاولات بوبر للرد على هذه التساؤلات بتحليل نظرية الاستقراء، وبيان مبررات دحضها.

02/ منهج المحاولة والخطأ: إذا تقرر لدى الباحثين والنقاد من العلماء وفلاسفة العلم أن الخطأ صفة بشرية بل وحكم يقيني لا شك فيه لدى كل عارف، أدركنا حينها أنه ليس بوسعنا التعلم إلا حين نحاول اكتشاف أخطائنا، ثم تحديد مواضع الخطأ لتقويمه أوتصويبه. وإذ تقرر في العلم خطأ بعض نظرياته فمرد ذلك هو قصور العلماء والمجتمعات العلمية على استخلاص أفضل المناهج التي يكون بوسعها استشكال المحاولات سواء كانت ملاحظات أو افتراضات أو اختبارات، وحسم نظريات العلم بقرارات جريئة وصادقة، تزيح معها كل ما من شأنه أن يحجب النور عن تكشف الثقافة الموضوعية المنفتحة على التطور باستمرار. ولا شك أن بوبر حقّ له ان يكون أحد رواد النزعة التطورية في الابستيمولوجيا المعاصرة بكل صدق، " وقهر الخطأ إنما يعني إذن أن نبحث عن حقيقة موضوعية وأن نقوم بكل ما بوسعنا لكشف الكذب والتخلص منه، هذه هي مهمة النشاط العلمي، ومن ثمة يمكننا القول أن هدفنا كعلماء هو الحقيقة الموضوعية، الكثير من الحقيقة الكثير من الحقيقة الواضحة، لا يمكن أن يكون اليقين هدفنا، وإذا ما أدركنا أن المعرفة البشرية ليست معصومة من الخطأ، أدركنا أيضا أننا أبدا لن نتيقن تماما من أننا لم نقع في الخطأ... وعلى هذا فإن العلم (المعرفة العلمية) هو دائما افتراضي، هو معرفة حدسية، ومنهج العلم هو المنهج النقدي، منهج البحث لإزالة الأخطاء لمصلحة الحقيقة"[3]. والواقع ان المناهج العلمية برغم كثرتها، لم تبلغ مقام مرامي البحث العلمي المعاصر، بسبب تغييبها منهج المحاولة والخطأ. " يبدو أن هذا هو المنهج المنطقي الوحيد الممكن إذ أنه المنهج الذي تستخدمه حتى أدنى الكائنات العضوية ألا وهو الأميبا ذات الخلية الواحدة، في محاولتها لحل مشكلة من المشكلات... أريد أن أضع ما قلته بخصوص التعلم من خلال المحاولة والخطأ، بشكل مختصر في إطار ثلاثي المراحل على النحو التالي: 1. المشكلة. 2. محاولات الحل.

([1]) - سيغموند فرويد: مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي، تر جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،ط2 ، 1082، ص 30.

([2]) - كارل بوبر: منطق الكشف العلمي ، ص ص 19. 20.

([3]) - *Karl popper : In search of a better world, Lectures and essays from thirty years, Translated by Laura J. Bennett, Rout ledge, London and new york, First published in English in 1994, P04.*

3. الاستبعاد"[1].على هذا النحو قصد بوبر مشكلة عموم المسائل العلمية، والارتقاء بها، من حيث يمكن افتراض قابليتها للتفنيد ثم تعزيز ما يفندها، لأجل جعلها متطورة، متدرجة صعودا في سلم الارتقاء السوي لثقافة العلم السوية. فمثلما انه ليس ثمة حقيقة مطلقة أو يقينية، مثلما أنه ليس ثمة نظرية علمية اكتمل تأسيسها منذ بداياتها الأولى "وبصورة عامة علينا أن ننتبه إلى أننا أبدا لا نصل بأي من تطبيقات منهج المحاولة والخطأ، أو عن طريق الانتخاب الطبيعي إلى حالة ثابتة من التكيف ومتوازنة تماما، وذلك أولا، لأن من غير الممكن الظفر بمحاولة مكتملة ومثلى لحل المشكلة وثانيا ـ وهو الأهم ـ لأن بزوغ بنيات جديدة أو توجيهات جديدة يتضمن تغيرا في الموقف البيئي"[2]. وحتى وهي ترتقي عبر مشاق البحث وغموض بعض معالمها، تظل النظريات العلمية تبحث عن ذاتها (تبحث لها عن تحقق وقبول من لدن العلم والثقافات العلمية إجمالا). حري بالعلم إذن أن يؤسس لضرورة المحاولة تنهيجا وتأسيسا، بما يقتضيه منطق البحث الابستيمولوجي. ولا يقتصر إصرار العلم المعاصر على رد الاعتبار لمنهج المحاولة والخطأ، بالاقتصار على وجهة نظر بوبر، بل تبعه آخرون من فلاسفة العلم بينهم آلان فرنسيس شالمرز إذ ينوه بقيمة هذا المنهج قائلا: " إن العلم يتقدم بالاختبار والخطأ، وبالتخمين والدحض، وحدها النظريات الأكثر ملاءمة تبقى. لن نبيح أبدا لأنفسنا القول عن نظرية إنها صحيحة، بل نسعى إلى تأكيد كونها أفضل ما توفر، وأنها تفوق جميع سابقاتها"[3]. إن العلم يبحث عن مزيد من التواضع، مزيدا من الثقة في هذا المنهج بنبذ الثقة المغمورة بالتفاؤل الذي لا تحمد عواقبه في غالب الأحيان. " إننا نستخلص دروسا من أخطائنا. إن العلم يتقدم بفضل التجارب والأخطاء. فكما أن المنطق يمنع استنتاج قوانين ونظريات عامة من قضايا المشاهدة، لكنه يجيز استنتاج كونها خاطئة"[4]. وحتى محاولاتنا أحيانا قد تبوء بالفشل، وليس القصد من ذلك إقرار بصمة إساءة للعلم، ولكن العلم أبدا ينزع إلى عرض أخطائه المستخلصة من المحاولات الناجحة وكذا الفاشلة، ووضع النظريات العلمية موضع المساءلة النقدية البناءة، كأن يحاول العلماء مثلا عرض افتراضات تفندها. "وبصورة عامة، علينا الانتباه إلى أننا أبدا لا نستطيع الوصول بأي من تطبيقاتنا منهج المحاولة والخطأ، أو عن طريق الانتخاب الطبيعي، إلى حالة من التكيف الثابتة والمتوازنة تماما، وذلك ابتداء لأنه من غير الممكن الظفر بمحاولة مكتملة ومثلى لحل المشكلة. وثانيا ـ وهو الأهم ـ لأن حدوث بنيات أو توجيهات جديدة يتضمن تغيرا في الموقف البيئي... وقد تنشأ ضغوط جديدة وتحديات مستجدة، وجدة في المشاكل التي تظهر كنتيجة لتغير البنية"[5]. ومؤشرات دلالة التغير لدى بوبر ليست مقترنة بعموم التطورات الحاصلة في البيولوجيا وحسب، ولكن فلسفة الثورة البوبرية هي للكائن البشري وللعلوم قاطبة، ثم للتاريخ

([1]) - *Ibid. P P 03-04.*

([2]) - *Karl Popper: The myth of the framework 'in defense of science and rationality, Edited by M. A. Notturno, Rout ledge, London and new york, 1994, P04.*

([3]) - آلان. ف. شالمرز: ما هو العلم، تر، لطيفة ديب عرنوق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1997، ص 59.

([4]) - المرجع نفسه، ص 67.

([1]) - *Karl Popper : The myth of the Framework 'in défense of science and rationality, P 04.*

والحياة إجمالا.يقول بوبر: " لن أتكلم عن تاريخ الكون، ولكن أقول بضع كلمات عن تاريخ الحياة على الأرض. ويبدو أن بداية جد واعدة قد اتخذت مؤخرا نحو إعادة بناء الظروف التي أسهمت في ظهور الحياة على الأرض، وأعتقد أننا ربما نتوقع قريبا بعض النجاح الباهر"[1].وأسمى ما يثير التفاؤل في مخيلة بوبر هو جعل العلم يتقدم باستمرار، وإن كان ثمة ديمومة في حياة العلم فلا يمكن تمثلها إلا في استدامة الانفتاح على تجديد بنى العلم ومناهجه، من خلال تموضع الذات حول فلسفة الاعتراف بالخطأ، والاعتقاد الجازم أنه حيثما يظهر التكذيب تختفي الحقيقة الزائفة، " ومن واجبنا أن ندرك أن الأبحاث المنهجية العملية ليست نافعة فقط، بل إنها ضرورية كذلك، فنحن لا نزداد علما في أثناء تطور المنهج وإصلاحه إلا عن طريق المحاولة والخطأ، كما هو الحال في العلم ذاته، وإنا بحاجة إلى نقد الآخرين حتى تتكشف لنا أخطاؤنا، ولهذا النقد أهمية بالغة، لأن الأخذ بما استجد في المناهج من شأنه أن يؤدي إلى تغير شامل وثوري. ومن الأمثلة على ذلك إدخال المناهج الرياضية في علم الاقتصاد، أو الأخذ بما يعرف بالمناهج الذاتية أو السيكولوجية في نظرية القيمة"[2]. عبر هذه الفاعلية الذاتية، في سعيها لتخطي عقبة الذاتية تنعقد الروابط الابستيمولوجية لممارسة النقد الجريء وتنبجس خيالات العلم الصادقة النازعة باتجاه الموضوعية الحقيقية. " ويثير نمو المعرفة مسألة ما إذا كان يمكن وصف هذا التقدم العلمي من جهة الحقيقة لمدة أطول. وقد اعتبر بوبر هذا المنظور عديم الفائدة، إذا كان ثمة ما يثير الزيف في العلم. وبما أن الخطأ هو المطلق الوحيد الذي يعرفه العالم، فإن الحديث عن حقيقة النظرية هو تجاهل حقيقة أنه يمكن دائما أن يكون الخطأ موضع شك. وبالتالي فإن تقدم المعرفة ليس يقصد به إزالة خطأ غير محدد، ولكن معرفتنا بالواقع... يجب أن تظل الحقيقة قاعدة لها، و هذا التدبير هو الذي قاد بوبر إلى صياغة عملية المعرفة، من حيث الاستزادة أكثر في تقريب الحقيقة[3]". ويقترب ههنا الطرح البوبري في بعض معاييره النقدية والنسقية مع الطرح الذي أقره كارناب، إذ يقول: " ثمة عبارتين متعادلتين يمكن أن تكون لهما نفس القيمة من جهة الحقيقة، أي الاصطلاح عليهما بالصحة أو باعتبار كليهما كاذبتين. وتجدر بنا الملاحظة أن مصطلح ' ما يعادله' من جهة المفهوم يعني مجرد الاتفاق فيما يتعلق بقيمة الحقيقة *Truth-value* (الحقيقة أو الكذب)"[4]. هذا ويعتقد بوبر أن النظريات العلمية ليست في مأمن من الأخطاء، حتى زمن حرص العلماء على تقصي الدقة والموضوعية، لا يمكن الثقة في منطق الاستبصار وكشف الخيال الذاتي أو الموضوعي، " ولكن لا يمكن التغاضي عن أن الكشف المصحوب بالاستبصار قد يكون هو الآخر على خطأ، ولها طابع الحدس الافتراضي أو الفرض، ولنتذكر أطروحة *Köhler*، إذ كانت في بعض الأحيان تصل عن طريق الاستبصار إلى

---

(2) - *Karl Popper: Objective Knowledge, Area list View of Logic, Physics, And history, Rout ledge London, 1996,P 12.*

(3) - *Karl popper : The poverty of historicism, Rout ledge, London and new york, First published in rout ledge classics, 1957, P 52.*

(4) - *Renée Bouveresse : Karl Popper, ou le rationalisme critique, P77.*

(1) - *Rudolf Carnap: Meaning and Necessity – A Study in semantic and modal logic – The university of Chicago press, Chicago and London, P 06.*

تحديد المحاولة التي سوف تفشل في حل مشكلتها. وحتى علماء الرياضيات البارزين قد يضللهم الحدس في بعض الأحيان، لهذا يجب على الحيوانات والبشر أن يختبروا فروضهم، يجب عليهم استخدام منهج المحاولة والخطأ"[1]. على هذا النحو تنعقد القرارات الحاسمة في تاريخ العلم، وهي تنمو وملاحظاتنا ترقبها بل وفروضنا تعززها لتعزز من قدرة الثقافات العلمي على مجاراة النزعة التطورية للعقل، لكي نعثر على أسباب تجيز لنا تجاوز أو تقويم ثقافات لا نعدها علمية، حيث يألف علماؤها وضع لا نزع الثقة في أبحاثهم " أما على المستوى العلمي، فإن الكشوف ثورية وإبداعية. والحق ان ثمة إبداعية محققة يمكن أن نعزوها إلى كل المستويات، حتى إلى المستوى الجيني: المحاولات الجديدة تفضي إلى بيئات جديدة، وبالتالي إلى سلطات انتخابية جديدة، فتخلق نتائج جديدة وثورية على كل المستويات، وإن كان ثمة اتجاهات قوية مقاومة للتجديد"[2]. وطبيعي جدا أن تتعرض نظريات بوبر في المنهج للتكذيب مثلما أن بوبر يرغب في التعرض لنظريات العلم بالتكذيب، طالما أن التكذيب لم يبلغ بعد مبلغ الظاهرة الاجتماعية أو الظواهر الثقافية، لذا فإن العلم بحاجة إلى نمو بعد سبات، والعلم بحاجة إلى ثورة بعد هدنة. إن تحديات العلم والعلماء جدية وموضوعية، نازعة باستمرار إلى عرض ثم تفعيل فلسفة جريئة، لأجل تغيير منطق العادة إلى منطق ثورة وسيادة للفكر والعلم على حد سواء.

ثانيا: منهج القابلية للتكذيب ومنطق العلم:

01/ التفنيد[*] بدل التحقق: إلى عهد قريب من عصر الفلسفة العلمية المعاصرة ما فتئ العلماء والفلاسفة يرجحون أحقية القوانين والنظريات العلمية بالتحقق، مدافعين عن الطرائق الوضعية التي تكرس سلطة الاختبار التجريبي، وحتى المشكلات التي تمخضت عن تطبيق مقررات الطريقة الاستقرائية . فيما يعتقد أنصارها . وجدت لها مخرجا مع 'رودلف كارناب' و'هانز ريشنباخ' بتطوير نظرية الاحتمالات. يقول 'ريشنباخ': "تنتمي دراسة الاستدلال الاستقرائي إلى نظرية الاحتمالات، إذ أن كل ما تستطيع الوقائع الملاحظة أن تفعله هو أن تجعل النظرية محتملة أو مرجحة، ولكنها لا تجعلها

---

(1) - *Karl popper: The myth of the framework – in defense of science and rationality, Rout ledge London and new York, First published, 1994, P05.*

(2) - *Ibid. P 06.*

(*) - "خاصية نظرية أو أطروحة قابلة للتفنيد بالتجربة. في فلسفة العلم عند كارل بوبر، معيار قابلية التفنيد يسمح بالكشف عن الخصائص التي تميز النظريات العلمية، مثل نظرية النسبية، التي من شأنها إبطال الأطروحات القابلة للتفنيد في نطاق العلوم الزائفة، مثل التحليل النفسي، والمادية التاريخية. ولا يبدي بوبر معارضة للنقد الهيومي لنظرية الاستقراء، ليثير جدالا بشأن تأكيد الطابع العلمي لفرضية أو نظرية لا يمكن أن نتبين مما يعزز تحقيقاتها التجريبية. ويصر بوبر على الإقرار بعدم التماثل المنطقي بين التأييد والتفنيد، طالما أن رصد الوقائع التي تنطوي عليها فرضية ما يمكن دحضها منطقيا، وكذا استنباط الحقائق التي تتنافى معها. فالمنهج العلمي لا يبرر نجاحه بمضاعفة التأكيدات، ولكن عن طريق صياغة فرضيات محفوفة بالمخاطر، تفترض إمكانية الدحض عن طريق الملاحظة والتجريب. غن الفرضيات التي بوسعها تعزيز فرضيات أثناء الاختبارات التجريبية الحاسمة، نطلق عليها تسمية "فرضيات مؤكدة". لهذا السبب يعتقد بوبر أنه إذا كان يمكن منطقيا قبول هذا الصنف من الفرضيات فليس بسبب من التفكير الاستقرائي، ولكن لأنها ستكون أكثر رجحانا للتأكيد من غيرها من الفرضيات التي تم استبعادها".

Grand dictionnaire de la philosophie, *Sous la direction de Michel Blaye, CNRS éditions, 2012, P 423.*

ذات يقين مطلق أبدا، ومع ذلك فحتى عندما يعرف باندماج الاستقراء في نظرية الاحتمالات على هذا النحو، تنشأ ضروب أخرى من سوء الفهم... إذا كان في إمكاننا أن نستمد الوقائع من النظرية بالاستنباط، ففي استطاعتنا أن نستمد النظرية من الوقائع بالاستقراء"[1]. ولست أقصد هنا التعرض لمشروعية الطريقة الاستقرائية، طالما أن الابستيمولوجيا المعاصرة أقرت أن الاستقراء أضحى عقبة دون تطور الأبحاث العلمية، كما أن نظرية داروين في "النشوء والارتقاء" أسقطت من تاريخ العلم، فثمة مفاهيم آن لها أن تكون لتزول من موسوعة المعرفة مثل اليقين. هذا ويعتقد بوبر أن خطأ السابقين من الفلاسفة والعلماء، مردّه إلى قصور منطق تفكيرهم، وغفلتهم عن تمثل حقيقة المشكلات لا التركيز المفرط على معايير الحقيقة، إذ الأصل أن الباحث يبحث أولا عن مشكلات الحقيقة قبل المضي اختبارا لموضوعاتها لذا من الضروري التمييز بين معايير الحقيقة، وبين أضرب الوهم التي نعدّها عقبات من دون فهم أو نظر عقلاني. يقول بوبر: " إنني أعتقد أن ما يدّعى من نسبية الحقيقة، التي يدافع عنها بعض الفلاسفة إنما تنشأ عن الخلط بين الحقيقة ومعنى اليقين، ذلك أننا قد نتحدث حقا في حالة اليقين، عن درجات من اليقين، نعني عن درجة استيثاق عالية أو منخفضة"[2]. ويجيبنا بوبر إذ يعرض لسؤال المعرفة: (ما الذي نقصد إليه اثناء بحثنا في مشكلات المعرفة؟) ويجيب بوبر: "نحن لا نبحث عن اليقين، الخطأ صفة بشرية، المعرفة البشرية كلها ليست معصومة من الخطأ، هي إذن محل شك، ومن ثمة فلا بد أن نميز بوضوح بين الحقيقة واليقين إن كون الخطأ صفة بشرية، لا يعني فقط أن علينا أن نكافح دوما ضد الخطأ، وإنما يعني أيضا أننا لا يمكن أن نتأكد تماما من أننا لم نخطئ، حتى لو كنا قد اتخذنا أقصى قدر من الحذر "[3]. وحسبنا أن نتولى مهمة فحص النتائج العلمية الإمبريقية والتجريبية على حد سواء، كي نتبيّن كم أن العقل بحاجة إلى نسق جدير بالثقة لأجل دحض الأنساق الدوغمائية التي أصبحت مضرة سيكولوجيا وابستيمولوجيا. فاليقين في نسبه للقوانين العلمية أو الحقائق الجزئية ليس له أثر في قاموس الفلسفة العلمية المعاصرة، طالما أن ثمة مراجعات وتحقيقات طالت المفاهيم قبل المناهج والأنساق. يقول كارناب: " القانون يقف عاجزا أمام درجة الثبات التي يتوصل إليها، لأن هذه الدرجة بالطبع لا تزودنا باليقين الكامل والكافي، فالمشكلة متعلقة بالمعنى الذي يقصده العلماء عندما يستخدمون هذا المفهوم "[4]. إنا بحاجة إلى عقل يجاري العلم في انسياب ثوراته، في حياة أفكاره، عقل يثور على العقل، عقل ضد العقل *mindAgainstmind*. " بيد أن العلم ليس مقدسا إلى أبعد حد، فمجرد حقيقة أنه موجود، وأنه يصادف من يعجب به، تكون له نتائج غير كافية لجعله مقياسا للامتياز، إذ ينشأ العلم الحديث من اعتراضات شاملة ضد ما كان عليه الحال من قبل بل وضد العقلانية ذاتها، نشأ من الفكرة التي تذهب إلى أن ثمة قواعد ومعايير عامة لإدارة شؤوننا، بما

---

(1) - هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، تر، فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ،1967، ص 204.

(2) - *Karl popper: The myth of the framework, p 05.*

(3) - *Ibid. P 04.*

(4) - رودلف كارناب: الأسس الفلسفية للفيزياء، تر، السيد نفادي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 2003 ،ص ص 242 ـ 243 .

في ذلك شؤون المعرفة، نشأ من اعتراضات شاملة ضد الحس أو الإدراك الشائع"[1]. إذ التاريخ محكوم بمنظومة أفكار لا تنفك تؤسس فيما بينها روابط ديناميكية تطورية على الدوام، وحتى إن اقتضت الضرورة تسليب بعض منها لقصور قدرتها على مجاراة الثورات الحاسمة فهي ضرورية لحياة فكر ينزع إلى الإيجاب باستمرار، وكم من عقبة أوحت بوثبة، بثورة أو بتصحيحات استوثقها التاريخ. " وحسبنا أن نقول بأن التاريخ وبخاصة تاريخ الأفكار يعلمنا أنه إذا أردنا تحقيق الفهم إزاء التاريخ، وجب علينا فهم الأفكار، وكذا فهم العلاقات المنطقية الموضوعية فيما بينها (أو ما يسمى بالعلاقات الجدلية). لا أعتقد أن أية محاولة من أية جهة كانت بإمكانها تحقيق النجاح من خلال أي مسعى لفصل تاريخ الأفكار، ولكني أعتبر أن المهمة هنا بمنآى عن كل صلة بتخفيض هذه الأفكار والتقليل من فاعليتها. إنا بحاجة إلى مجادلة حقيقية لتبرير الاعتراف بالكيانات الناشئة، قبل أن ينشغل المرء بمحاولة القضاء عليها"[2]. وقد ألفنا في أثناء قراءاتنا لخطابات العقل التاريخية التسليم الإيماني بوثوقية أفكار واطروحات من نسجوا تلك الخطابات، إذ ندين في ذلك بالولاء لثقتنا في المفكر، " ولكننا أيضا نحتفظ بنظريات نأخذ بها على أنها قد حسم أمرها مسبقا، من دون وعي ولا نقد، وغالبا ما تحتوي هذه النظريات المحتفظ بها بشكل غير نقدي على أقوى مبررات ترسيم بقاءها حية لفترة طويلة: فقد وصف بيكون هذه الافتراضات اللاواعية *Unconscious* بأنها أوهام *Idols* أو أحكام مسبقة *Prejudices*. وتنبؤنا المحاورات الأفلاطونية، أن سقراط كثيرا ما كان يجعل محاوريه يكتشفون تناقض آرائهم، وجهلهم بالحقيقة حين يتبين أن مواقفهم ووجهات نظرهم غير مدركة في معانيها"[3]. آن الأوان رد الاعتبار للعقل النقاد لينظر في تاريخ النقد، كما يحصل النظر والتمحيص في مختلف الممارسات العلمية والفلسفية، وتبعا لهذه المؤشرات يتأكد لدى الإبستيمولوجيين أن النقد الذي طال النظريات في أزمنة سابقة لم يسمو إلى مقام الجرآءة والوضوح، بما يوجب على العلماء تخطي مرحلة السبات الدوغمائي، الذي يجعل من العقل مستعبدا لا سيدا. لقد كانت الأفكار سببا تقييد العقل لا في تحريره. عندئذ " لا ينتج الإنسان نظريات علمية وحسب، ولكن ينتج أيضا العديد من الأفكار مثل الأساطير الدينية والشعرية "[4].حينئذ لا بد من التشكيك في مشروعية التحقق من صدق النظريات العلمية. يجب المضي عبر اختبارات النقد إلى إقرار مبدأ قابلية النظرية العلمية للتكذيب *Falsifiability* " ولقد كان للمناهج النقدية أثرها البالغ في حسم حلول لمشكلات العلوم الطبيعية، وكذا بعض العلوم الاجتماعية وخاصة التاريخ والاقتصاد. لقد بذلنا قصارى جهدنا لتقصي الحقيقة، من خلال الكشف عن الفرضيات وكذا النظريات التي لم تحقق التطابق مع حقائقها، وهكذا فإن هذه العلوم كشفت عن أرقى

([1]) - المرجع السابق نفسه، ص 25..

([2]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance,. P 13.*

([2]) - *Karl popper: Realism and the aim of science, from the "postscript to the logic of scientific discovery", P 14.*

([3]) - *Karl popper: Objective Knowledge, Area list View of Logic, Physics, And history, Rout ledge London, 1996, P 06.*

الوضعيات التي بلغتها النظريات من وجهة نظر الحقيقة"[1]. تلعا لتفعيل وتعزيز هذا النهج غير المعهود في مواضي الفلسفة والعلم، يعظم شأن المنهج البوبري، عندما يستوعب الأنساق والنظريات، ثم ينفد إلى مضامينها وآلياتها المنهجية، يفحصها، ثم يدقق النظر في مقاصدها وأهدافها، ناظرا إليها من حيث هي فرضيات تختبر بفرضيات مضادة، وعلى هذا النحو يبتدئ التطور العلمي المشروع. "ويتكون تطور المعرفة من تصحيحات وتعديلات في المعارف السابقة بواسطة طريقة التخمينات الجريئة، ومحاولات الدحض. ويمكن أيضا وصف هذه الطريقة بأنها حاسمة بل هي وسيلة لاختبار وإزاحة الخطأ، عن طريق عرض بمقترحات فرضيات، نختبر بموجبها نظريات ويتم عرضها على أشد الاختبارات بأقوى صرامة ممكنة"[2]. ههنا يبتدئ الحديث عن منطق نمو المعرفة في فلسفة بوبر عبر بوابة النقد والرفض لمنطق الفلسفة الوضعية، التي لطالما ألزمت العقل التقليد والاتباع العام لمقررات الفكر الوضعي، إذ يضع نهايات مثبتة لاختبارات العلم. يقول بوبر: " فإنني أجد أن المذهب الوضعي غير مقبول ذلك لأن فكرة العلم وغرضه عند الوضعيين تختلف تماما عن فكرتي، فبينما لا أطلب أي يقين نهائي بالنسبة للعلم (وبالتالي لا يمكن الحصول عليه) نجد أن الوضعيين يبحثون في العلم كما لو أنه (نسق من المعرفة يستند إلى أسس نهائية)... سوف نأمل أيضا أن نتوصل إلى ذلك عن طريق نسق علمي جديد، ومن ثم سنركز على الاهتمام الجاد بتكذيب التجربة، وسوف نصفق لها كنجاح، لأنها فتحت أمامنا آفاقا جديدة في عالم من الخبرات الجديدة"[3]. هكذا يتحرر العلم من علائق التعود، ليعتلي الفكر العلمي عرش ثقافة جديدة مؤداها حمل الفكر النقاد على تثمين خيبات الأمل وهو يشهد انهيار نظريات لطالما قدسها وانبهر بنتائجها مقابل الشعور بالاعتزاز لنصرة العقل الذي جنح إلى تكذيب نظريات وتعزيز مبدأ الجراءة العلمية الابستيمولوجية.

02/ مبدأ التكذيب وأثره الإبستيمو ميثودولوجي على فلسفة العلم: إن الثورات الميثودولوجية هي مركز كل ثورة معهودة في تاريخ العلم، تصل البدايات بالنهايات، تحيل سؤال الكيف إلى موضوع سجال وجدل بنيوي باستمرار، محمولا بعقلنة ناصية الجرآءة وروح الموضوعية، تلك هي رسالة بوبر الشاذة بين رسائل معاصريه، حين أقر خارطة جديدة لفلسفة المنهج، إذ عرض فيها لمشكلات العلم الميثودولوجية، ليؤسس من خلالها معالم فلسفة المنهج النقدي، وعبرها أفصح بوبر عن مؤشرات الاعتراض على مقررات الفلسفة الوضعية. "والواقع أن السبب الرئيسي الذي من أجله وجّه الابستيمولوجيون ذوو النزعات الإمبريقية نظرهم للتحول الإمبريقي، ومحاولة إثبات (منهج الاستقراء) بيّن، وفي اعتقادهم أن هذا المنهج وحده يمكن أن يزودهم بمعيار ملائم للتمييز، وهذا القول ينطبق على أولئك التجريبيين الذين يتبعون لواء الفلسفة الوضعية"[4]. وليس من الغرابة أن يثير الفكر العلمي حينئذ شكوكا بشأن مدى قدرة المناهج التجريبية على تبرير

---

(1) - *Ibid. P 06.*
(2) - *Fabien blanchot : La connaissance objective de Karl Popper: Principales thèses et apports pour les recherches en gestion, p 28.*
(3) - *Karl popper: The logic of scientific Discovery, PP 59-60.*
(1) - *Karl popper: The logic of scientific Discovery, p 11.*

صحة اختباراتها من عدمها، طالما أنه لا يمكن التعرض لقضية التمييز من خلال معيار بحاجة لأن يميّز عن المعايير الموضوعية. فالمنهج التجريبي ليس بوسعه مطابقة الحقيقة بالتحقق، ولكن عن طريق قابليتها للتكذيب من خلال عرضها على الاختبارات الحاسمة. يقول بوبر: " ولكنني اجد أن النظريات العلمية ليست أبدا مما يقبل التبرير أو التحقيق تماما، وإنما هي ما يقبل الاختبار، ومنت ثم فإنني سوف أقول أن موضوعية القضايا العلمية تكمن في الحقيقة القائلة، بأنه يمكن اختبارها على نحو ذاتي متبادل"[1]. واستخلاصا لما سبق فليس للمناهج الاستكانية (المؤيدة للنسق الاستقرائي) من فضل على تغيير منطق الأنساق العلمية الجديدة، طالما أن الطريقة الاستقرائية أيضا أضحت عقبة إبستيمولوجية وجب تجاوزها. " أي منهج من هذا النوع هو في نهاية المطاف ليس سوى خداع. إنه يفرض التزاما غامضا، وهو يتحدث عن الحقيقة إنه يؤدي إلى تدهور القدرات الفكرية وإضعاف قوة الخيال، ونحن نتحدث عن البصيرة العميقة... لكن حقيقة الآراء لا غنى عنها للمعرفة الموضوعية كما أن المنهج الذي يشجع على الحقيقة هو المنهج الوحيد المتوافق مع الأفكار الانسانية، إلى الحد الذي يجيز فرض قيود على هذا التطابق"[2]. وإذا ثبت أن التمييز في فلسفة التكذيب البوبرية يرتكز على مسألة تمييز النظريات بعضها عن بعض تبعا لمؤشرات التعزيز أو التفنيد، أو قوة التحقق من ضعفه، فإن المنهج المناسب لذلك لا يمكن أن يكون استقرائيا. لذا ألح بوبر على ضرورة تجاوزه، إذ يقول: " وطالما أنني رفضت المنطق الاستقرائي، فينبغي عليّ أيضا أن أرفض كل المحاولات لحل مشكلة التمييز، وبهذا الرفض فإن مشكلة التمييز تكتسب أهميتها بالنسبة للبحث الراهن والعثور على معيار مقبول للتمييز، فحسم أي هدف بالنسبة لأي إبستيمولوجيا يستبعد قبول المنطق الاستقرائي"[3]. وإذا ثبت أن الاستقراء لا يحوز على معيارية التمييز بين النظريات ولا بين الفرضيات، فإنه لا يحوز كذلك على فرضية قابلية تفنيد نظرياته. وتبعا لهذه المجادلات لا يصير العلم بمنآى عن الإحراج والتعقيد، طالما أنه لم يزح من طريقه طرائق آن لها الأوان أن تزول. يجب الإصغاء لخطابات الخبراء من فلاسفة العلم وهم يوقظون في العلم حياة وفي الفكر مناهج وبنيات، لتستبين معالم فلسفة الحقيقة، التي شأنها أن تحيط بتساؤلات جدليات الطرح العلمية والفلسفية. وينوه 'فيرابند' بضرورة تتبع العقل لمسارات العلم في تشعبها وتعقد مسائلها، ونسبية الكشف الانساني الدال على الحقيقة إذ يقول: " ربما تتعرض الاعتبارات التي قدمناها حتى الآن إلى الانتقاد، إذا ما سلمنا بأن العلم، لكونه نتاج مجهود إنساني، فهو عرضة للأخطاء، فضلا عن أنه لا يزال أفضل من وسائل بديلة لاكتساب المعرفة فالعلم أرفع منزلة لسببين: إنه يستعين بالمنهج الصحيح للتوصل إلى النتائج، وأن ثمة نتائج عديدة تبرهن على امتياز المنهج "[4]. ولعل هذا ما عناه

([2]) - *Ibid. P 22.*

([4]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance P47.*

([1]) - *Karl popper: The logic of scientific Discovery, Classics Routledje, London, new York, First edition, 1934 p12.*

([1]) - بول فيرابند: العلم في مجتمع حر، تر، السيد نفادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000ص ص 112. 113.

بيكون ـ في وجه من أوجه البيان الصادق ـ حين قال: " ثمة أسئلة وخلافات لا تحصى حول الأجزاء الفرعية للفلسفة وذاك تأكيد على أنه ليس ثمة دليل يؤسس لوجود شيء مؤكد أو صحيح، لا في المنظومات نفسها ولا في طريق البرهان... فبئس الدليل الإجماع في المسائل الفكرية... فلا شيء أثلج لصدور الطّغام ممن يفتتن بالخيال ويوثق العقل في أغلال الآراء الشائعة... وما أحوجنا حينئذ من أن نستعير قول فوشيون *Phocion* من مجال الأخلاقيات إلى مجال الفكر: ' إذا غمرك الدهماء بالتأييد والإعجاب فتحسس أخطاءك' "[1]. فالتمييز لغة العلم، وهو يتميز ويسمو عن كل العلوم الزائفة، كما أن التكذيب الحقيقي يجب أن يتميز عن التكذيب الظاهري، مثلما أن النقاش الحاسم يجب أن يسمو دوما بثقافة العلم والعلماء عن أصناف المناقشات التقليدية، فالتمييز سمة العقل النقاد، إذ لا يستقيم وضع المنهج العلمي إلا وهو يرمم أخطاؤه ليعيد بناء نسق غير النسق الوضعي التقليدي. وإذ يشدد بوبر على ضرورة وضع ماهية متجددة لنسق خبراتنا يتساءل: "كيف يمكن تمييز النسق الذي يمثل عالم خبراتنا؟ الإجابة على ذلك هي: أنه يمكن تمييزه من خلال الحقيقة القائلة بأنه يجب عرضه على الاختبارات، وتبيان مدى صموده لها، وهذا يعني أنه قد تميز بتطبيق المنهج الاستنباطي عليه، وذاك هو مقصدي من التحليل والوصف... وبناء على هذه الوجهة من النظر فإن الخبرة تبدو كمنهج متميز، وبناء عليها يمكن أن نقول أن نسقا نظريا أمكن تمييزه من بين أنساق أخرى"[2]. وفي هذا المقام يبتدئ الخطاب البوبري بتساؤل إشكالي نصه: " كيف يمكننا التمييز بين التكذيب الحقيقي والتكذيب الظاهري؟ فما نحتاجه في العلم شكل من التحزب *Parteibildung* لصالح وضد كل نظرية تخضع لاختبار جاد، لأننا في حاجة لمناقشة عقلية علمية. ولا يؤدي دوما كل نقاش إلى نتيجة حاسمة... ولا تصل كثير من المناقشات إلى تحديد نهائي واضح، كالمناقشة المشهورة التي قامت بين العالمين المشهورين ألبرت أينشتين ونيلز بور، إذ لا وجود لدينا لمعيار أن كل مناقشة علمية ستنتهي إلى حسم للنقاش. إذن ليس ثمة من معيار للتقدم العلمي"[3]. وفوق كل ذلك وجب على فلاسفة العلم حيازة ناصية الخبرة الفوقية لكشف كل أباطيل الحقائق المزيفة، وكشف ادعاءاتها، لجعل الحقيقة تعرف لها طريقا نحو التقدم، تقدم جريء نحو التمييز الذي يستوعب مقام المعرفة الموضوعية بين المعارف دون مقامها.

خاتمة: عندما تقرأ لبوبر تدرك تماما أن ما طالعته من مقررات خطابات العلم والفلسفة المعاصرة بحاجة لإعادة نظر، إذ تستوقفك نفحات عقل ثوري بحق، أحاط بسؤال كيف المعرفة: كيف لي أن أعرف؟ ليس على منوال ما عرض له كانط،

([2]) - *Francis Bacon: Novom Organum, Nouvelle Traduction en Français, Par Loriquet, Librairie de L'Hachette et Gié, Paris, 1857, PP 34-35.*

([3]) - *Karl popper: The logic of scientific Discovery, P 17.*

([4]) - *Karl popper: All life is problem solving, Translated by Patrick Camiller,First published, rout ledge, London and New York, 1994, P 10.*

لأن مقصد بوبر بالأصل هو الإحاطة بسؤال كيف لي أن أفنّد وأكذّب النظريات التي اتفق السابقون والمعاصرون من فلاسفة وعلماء وفلاسفة العلم على بيان مشروعة تحققها، إذ أعاد العلم إلى مساره التاريخي القويم، ولا أدل على ذلك أكثر من جودة أفكار حفلت بها مؤلفاته القيّمة، وقد حق له امتياز 'السير كارل ريموند بوبر'.